فشلهم في ميدان الأخلاق

لم يقتصر فشل الاشتراكيين الثوريين على الجوانب المادية، بل كان فشلهم أكبر في الجانب المعنوي: جانب القيم والفضائل التي بحياتها تحيا الأمة، وبموتها تموت.

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فـأقـم عليهـم مـأتمـاً وعـويـلاً!

لقد هاجموا الدين الصحيح، ودعاته الحقيقيين، وحاولوا أن يكوّنوا مكان «الإنسان المسلم» العريق «الإنسان العربي» الجديد، الذي يؤمن بأن قيم المجتمع البائد ـ حتى الله سبحانه والأديان كلها ـ دمى محنطة في متاحف التاريخ، كما كتب ذلك بعضهم بصريح العبارة.

أرادوا أن يـذيبـوا الحـواجـز بيـن الفتـى والفتـاة فـي الـرحـلات المـزدوجـة، ومعسكرات الشباب المختلطة، وغيرها، فالروح الاشتراكية الثورية التقدمية لا تقبل مفاهيم وتقاليد عمرها أربعة عشر قرناً.

لقد زعزعوا من قيمة الأخلاق في نفوس الأجيال الناشئة، وقدموا لهم الأغذية السامة من أدب سارتر وكاموا، ومن أفكار الماديين الجدليين، ومن قصص المنحلين الإباحيين، وأصبح «أدب الجنس» أو «أدب الفراش» كما سمّاه المرحوم العقاد هو الأدب السائد الرائج في ظل الثوريين!

ولا غرو أن يصبح إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وليلى بعلبكي وغادة السمان ونزار قباني وأمثالهم هم أساتذة الجيل، كما أن روايات «لا أنام» و «الطريق المسدود» و «نحن لا نزرع الشوك» و «أيام معه» وما شابهها هي السلعة

النافقة في سوق الأدب العربي في عهد التقدمية الثورية! في حين تمنع معظم الكتب الإسلامية عن كافة البلاد الاشتراكية، حتى قال رئيس اتحاد الناشرين في بيروت: إن الكتب الجنسية الآن من أروج الكتب في البلاد العربية، وهي ـ والمعاجم اللغوية ـ لا تمنع كالكتب الأخرى.

وقد انعكس هذا الفساد الخلقي العام على الجيش والقوات المسلحة، وخصوصاً على القادة والضباط فيها.

ويكفينا هنا أن نذكر مثالاً على تغلغل هذا الفساد، ونفوذه من الجلد إلى اللحم والعظم.. وذلك هو موقف قادة الطيران بمصر في ليلة ٥ يونيو ـ حزيران ـ ١٩٦٧، فقد كانت هناك تنبيهات من أكثر من جهة، وتحذيرات من أكثر من مصدر، تومىء إلى توقع هجوم من إسرائيل في يوم ٥ يونيو ذاته. ويساعد على هذا التوقع سخونة الجو السياسي والعسكري، وارتفاع حرارته إلى حد بعيد، على أثر المؤتمرات والتصريحات النارية!

وفي هذه الظروف يأبى قادة الطيران إلاَّ أن يقيموا حفلاً راقصاً، يشربون فيه ويطربون، ويتراقصون ويتمايلون، حتى مطلع الفجر، بدلاً من أن يبيتوا لربهم سجداً وقياماً خلف متاريسهم، يقولون: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، و «ميراج» إسرائيل!

وكان ما كان من ضرب المطارات وتحطيم الطيران، والقوم يغطون في نوم عميق بعد سهرهم الطويل!

ولقد كشفت «نكستهم» في ١٩٦٧ كثيراً من الفضائح والمخازي التي يندى لها جبين الكريم، ويضيق بها صدر الحليم.

ومن هذه المخازي قضايا «الجواسيس» اليهود الذين تسللوا في أكثر من بلد عربي ثوري إلى مجالس الصدارة، ومراكز القيادة، تحت أسماء إسلامية مزورة، واستطاعوا أن يمسوا ويصبحوا ندامى ومسامرين لكثير من الشخصيات المرموقة عسكرية ومدنية، وأن يحصلوا من ورائها على أعمق الأسرار العسكرية والسياسية،

ليطيروها إلى «إسرائيل» وهم في أمان واطمئنان، لأنهم في حماية فلان، وفي كنف علان، من القادة والضباط العظام!

إن قصة «إيلي كوهين» في سوريا، واليهودي الذي زعم أنه تاجر خيل في مصر، والآخر الذي ادعى أنه تاجر أسلحة تركي، وخلع على نفسه اسم «أنور بك» وغيرهم ـ مما كشف بعضه، ولم يزل بعضه الآخر سراً مجهولاً ستظل من القصص العالمية المدهشة والمثيرة في تاريخ التجسس المفعم بالمغامرات.

لماذا نجح هؤلاء الجواسيس؟ نجحوا عن طريق الفساد الخلقي، فما وجدوه منه استغلوه ووسعوه، وما لم يجدوه حاولوا أن يخلقوه ويغذوه. إن أعظم فخّين أو شبكتين للجاسوس هما: الخمر والمرأة! وعن طريقهما يصطاد كبار المسؤولين من حملة أسرار الدولة والقوات المسلحة!

ففي ساعة «الخمار» و «النشوة» و «الانسجام» يظهر المخبوء ويتكشف المستور، ثم عندما تتوافر الثقة بالنديم الأنيس، والمسامر الجليس، والصديق المخلص المتجرد! تصبح الأسرار كلها بين يديه، ولا يسعى هو إليها، بل تسعى صاغرة إليه!

إن هذه المخازي تزيد المسلم إيماناً بعظمة الشرع الإسلامي، ويقيناً بحكمة الله، وكمال منهجه الذي حرّم الزنى وقال فيه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ وحرم الخمر والميسر وجعلهما رجساً من عمل الشيطان، وسمى الخمر «أم الخبائث»!

إن هذا التحريم لم يكن عبثاً ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولم يكن انتقاماً من البشر، ولا تضييقاً عليهم، بل كان ضرورياً لتربية «الشخصية» المتماسكة أمام الإغراء، وأمام الشهوات.. الشخصية التي تتصرف بإرادة العقل، لا باندفاع الغريزة.. الشخصية التي تراقب الله في كل تصرف، أو نية تصرف، بحيث تزن أقوالها وأفعالها ورغباتها كلها بميزان «التقوى» وتستحضر «الآخرة» في كل ما تفعله أو تريد أن تفعله يستوي في ذلك: الشؤون الشخصية والاجتماعية.

إن الذي يتفطر له القلب حقاً أن «الشخصية المسلمة» لم يعد لها معالم أو ملامح تميزها أو تشخّصها عند هؤلاء القوم الثوريين الذين ينتسبون إلى الإسلام، ويعلنون أنهم مسلمون.

فالمسلم واليهودي في ميزان هؤلاء الناس سيان، لا يعرف هذا من ذاك، ولا يتميز أحدهما عن الآخر في فكر أو عبادة أو خلق أو سلوك.

لقد دمرت الشخصية المسلمة ومحيت معالمها بحيث لم يبق أي فرق يعرف به«كوهين» الإسرائيلي من «كمال أمين ثابت» العربي المسلم، كلاهما يفكر بعقلية علمانية تجهل الإسلام.. كلاهما يجهل الصلاة ولا يعرف بيت الله.. كلاهما يشرب ويسكر.. كلاهما يراقص ويزني.. فأي علامة فارقة بين كمال وكوهين؟!

وهذا أسوأ ما دلت عليه قضايا الجواسيس.

أما جواسيسنا فماذا عملوا؟ ماذا عملت أجهزة مخابراتنا التي كنا نفخر بأنها أقيمت على أسس علمية، وبمستوى رفيع؟

لقد كتب هيكل يبين أنهم اتخذوا وسائل اليهود من المال والجنس، فغرقوا في الوسائل، ونسوا الغاية. أي غرقوا في لجة المال والجنس ولم يكشفوا أسرار العدو.

يقول «هيكل» في أهرام ٢٠/ ١٠/ ١٩٦٧:

«إن بعض أجهزة المخابرات العربية شغلت نفسها بالداخل، طلباً للسلطة، ولم تعط العناية الكافية للناحية الأخرى من خط النار.

«ثم إن بعض أجهزة المخابرات العربية في محاولاتها لاستعمال بعض وسائل العدو ـ وبينها المال والجنس مثلاً ـ خلطت كما يبدو الآن بين الوسائل والغايات، أي أنها توقفت عند الوسائل في عدد من المرات، وغرقت فيها، ولم تستطع مقاومة الغواية والإغراء، وتجاوزها إلى تحقيق الهدف».

وإنّا لنقف عند هذا الكلام الدقيق الناعم ـ نعومة الحرير ـ في تصوير فساد

دولة المخابرات ذات الإمكانات الضخمة، وغرقها في المال ـ أي السرقة ـ ـ والجنس ـ ـ أي الزنى ـ ومن وراء ذلك الخمر والمخدرات وما يتبعها!

فهذا الكلام يبرر استعمال وسائل اليهودية، ولو كانت ضد الدين والخلق والشرف، إن اليهودي لا يمتنع أن يبيع عرضه في سبيل مصلحة مادية، فهل نفعل نحن ذلك؟

هل يقبل ديننا أو مروءتنا أو تقاليدنا أن نجعل من بناتنا أدوات نستخدمها في كشف الأسرار أو اصطياد الجواسيس بأي ثمن؟ ولو كان الغرق في الوحل والنجاسة؟

إن أخلاق أمتنا ترفض «الميكافيلية». ترفض الوسيلة القذرة إلى الغاية الشريفة. وتأبى إلاَّ الطريق النظيف للهدف الشريف... تأبى الوصول إلى الحق بطريق الباطل. تأبى بناء جامع من أموال الربا، فإن الله طيب لا يقبل إلاَّ طيباً!

إننا لسنا تلاميذ لإسرائيل حتى نتعلم منها، ونتخرج على أيديها، ونستعمل أساليبها بدون تحفّظ، ولو كانت امرأة وكأساً...

إن ديننا ومروءتنا وأخلاقنا تفرض علينا النظافة غاية ووسيلة، وإلاَّ كان عملنا تخريباً لأجهزتنا، وإفساداً لرجالنا، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ولقد كشفت محاكمات قادة الجيش والطيران والمخابرات بعد النكسة كثيراً من المآسي والفضائح التي لم تكن تخطر ببال أحد حتى قال رئيس المحكمة التي حوكم أمامها شمس بدران وصلاح نصر وغيرهما، وهو السيد حسين الشافعي ـ بعد أن وقف على كثير من البلاوي المستورة ـ قال في طيبة وتوجع ـ إذا كان هذا كله يحدث في الداخل، فنحن نستحق أكثر مما وقع!

والعجب الذي لا ينقضي أن النكبة المريرة المروعة لم تكف في ردع المنحرفين عن انحرافهم، ولا في زجر غيرهم عن اتباع سبيلهم، فما كادت تحدث تصفيات مايو ١٩٧١، حتى وجدنا ألواناً أخرى من الفساد والتزوير والطغيان والإثراء الحرام، وسوء الأخلاق، يحميها كلها طبقة مستبدة من دعاة الثورية

والاشتراكية والناصرية، قدموا هم أيضاً إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى!

كتب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في جريدة الأخبار (١٩/٥/١٩٧١) يقول:

«لم يعد الموقف صالحاً للصمت بعد»...

وإذا كانت قد مرت علينا أيام كان فيها الصمت هو الموقف الوحيد الأبيّ والشجاع. فالصمت الآن ذنب لأننا نخوض معركة مصير ضد كل قوى الظلام.. ضد الاحتلال الأجنبي والاحتلال الداخلي.. بكل ما تملك تلك القوى مجتمعة من ضراوة وشراسة وهمجية..

إن قوى الاحتلال الأجنبي تحتل جزءاً عزيزاً من أرضنا العربية ولا بدّ لنا من تحرير هذه الأرض، وتطهير وجه الوطن الذي شوهته الهزيمة... وطريق الخلاص منها واضح...

أما قوى الاحتلال الداخلي، فقد جثمت على صدورنا كالكابوس، وتسللت إلى مواقع السلطة، وأفسدت أعداداً من المواطنين بالرشوة وخلق المصالح ودمرت كثيراً من الضمائر، ووضعت موازين جديدة للخير والشر.. فالمواطن الصالح عندها هو العميل الذي يتقن فنون التجسس على الآخرين والإيقاع بالأصدقاء والتسلل بأجهزة التسجيل إلى مكامن الأسرار.. كانوا دائماً هناك في أي مكان.. حتى في المخادع!!

كوَّنوا جماعة سرية تحكم مصر.. واصطنعوا لها دولة بالدعاة والمضحكين والغواني المرفهين..

أعضاء هذه الجماعة هم وحدهم الذين لهم حق تولي المسؤوليات، وهم فوق القانون...

يبتزون وينهبون ويتسلطون باسم الثورة وباسم الاشتراكية وتتحول الثروات العامة إلى ثروات خاصة... يملكونها هم وحدهم...

السلبي عندهم هو من يرفض أن يقتات بالعفونة، هو من يقف شامخاً أمام تزييفهم، هو من يأبى أن يتجسس وأن ينحني وأن ينافق، وأن يسلم في شرف كلمته!... هو من يشعر أن من حقه أن يحترم وأن يقضي الحياة شريفاً، هو من يأبى أن يبيع المسيح ليهوذا الجديد ولو بجبال من الفضة!.

الإيجابي عندهم هو من ينشط إلى التزييف، ومن يضلل باسمهم، ومن ينشر المصائد في طرقات الناس.. هو من يردد في كل مكان أنهم هم قادة الاشتراكية.. هم لا سواهم..

* * *

فالاحتجاج على مباذلهم وإرهابهم وأساليبهم هو الرفض للاشتراكية.. هو الثورة المضادة، هو تصفية الثورة.. وهو تصفية للاشتراكية!.

ولهذا فلا جزاء لمن يعترض إلاَّ أن يهدر أو ينتهك.. فإذا لم يستطيعوا فليتآمروا عليه وليشعلوا الفتنة وليحرقوا قلب مصر!!

إن هذا الاحتلال الداخلي لأشد خطراً من الاحتلال الخارجي... لأننا نعرف الاحتلال الخارجي ونعرف الطريق إلى التحرير منه... ونعرف أن من يحتلنا هم الأعداء...

أما الاحتلال الداخلي فقد تسلل إلينا كما يتسلل الذئب في ثياب الجدة العجوز ليأكل الصغار الآمنين.. لقد تسللوا إلينا تحت شعار الثورة والاشتراكية.. وحماية الناصرية..

هم الثورة وهم الاشتراكية وهم الوطن.. والذي يرفض هذه الخديعة المثيرة للغثيان ليس إلاَّ عدواً للثورة والاشتراكية والوطن.. ويجب أن تدبر له المكائد والمؤامرات..

أي غيلان رهيبة انطلقت علينا.. أية زواحف بلا منطق تسللت إلينا لتحكم الوادي المقدس في عصر انتصار الإنسان؟!